الفصل الثالث

مذهب سان سيمون
فى ميدان التطبيق

obeikandl.com

obeikandl.com

نشأة المدرسة السان سيمونية

لا يمكننا ، ونحن بصدد الحديث عن سان سيمون وفلسفته ، أن لا نتعرض لجانب هام من جوانب هذه الفلسفة ، وهى محاولة تطبيقها تطبيقاً عملياً فى الشرق العربى عامة وفى مصر بوجه خاص .

ففى اليوم التاسع عشر من مايو عام ١٨٢٥ مات سان سيمون ، وقد أحاط به جمع من أتباعه وتلاميذه المخلصين ، الذين آلوا على أنفسهم حمل رسالة أستاذهم الراحل من بعده . من بين هؤلاء يمكننا أن نذكر أوليند رودريج Rodrigue وليون هالڤى Halevy والدكتور بايى Dr. Bailly والمشرع ديفرجييه Duvergier .

وفى اليوم التالى لوفاة سان سيمون انضم إلى الأتباع مهندس استهوته فلسفة الزعيم الراحل ، هو بارتلمى بروسبر أنفانتان B.P. Enfantin الذى يرجع إليه فضل توحيد أتباع سان سيمون فى مدرسة واحدة زهاء ربع قرن من الزمان ، والذى تعرض لمحن قاسية نتيجة إخلاصه وتحمسه فى تنفيذ مبادئ سان سيمون أو « رسول الإنسانية » كما كان يحلو لأنفانتان أن يسميه[1] .

وقد كانت مدرسة الهندسة العسكرية بباريس هى المعمل الذى تخرج فيه عدد كبير من أتباع سان سيمون . فمن هذه المدرسة تخرج « هوار » Hoart « وشارل لامبير » Lambert و « ديشارم » Decharmes و« هنرى فورنل » Henri Fournel و « برکس » Prax و« برينو » Bruneau و« أبل ترانسون » Abel Transon و« جازيه » Gazeux و« ميشيل شفالييه » Michel Chevalier وغيرهم من الأتباع .

---

(١) Charléty : Histoire de Saint-Simonisme, Paris, Hartman, 1931, p. 26.

كرس هؤلاء الأتباع جهدهم ، وبذلوا وقتهم ، وأنفقوا مالهم ، لإحياء دعوة سان سيمون متمثلة فى مبادئه السياسية وفى فلسفته الاجتماعية التى لم يتمكن من تحقيقها فى حياته. وكان أول عمل لهم هو إصدار صحيفة « المنتج »Le Producteur جريدة فلسفية للصناعة والعلوم والفنون فى أواخر عام ١٨٢٥ . ولكن خلافاً دب بين أنفانتان وبازار Bazard أحد الزعماء المخلصين للمدرسة السان سيمونية ، فتوقفت الصحيفة عن الصدور .

وفى عام ١٨٢٧ أحس أتباع سان سيمون بضرورة تنظيم دعوتهم — بعد أن توقفت مجلتهم عن الصدور — فاتفقوا على إلقاء محاضرات منتظمة للتعريف بالمذهب الاجتماعى للمدرسة السان سيمونية . وكانت الفترة من عام ١٨٢٨ إلى عام ١٨٣٠ حافلة بالمؤتمرات ، زاخرة بالمحاضرات التى نظمها الأتباع لعرض فلسفتهم الاجتماعية .

ويذهب جورج جورفيتش ، أستاذ علم الاجتماع بجامعة السوربون ، إلى تأكيد أن ماركس قد تأثر كثيراً بآراء سان سيمون التى عرضها أتباعه فى عام ١٨٢٩ — ١٨٣٠[١] بل إن الشاعر الألمانى الكبير « هن » Heine الذى هاجر إلى فرنسا عام ١٨٣٠ قد أصبح منذ عام ١٨٣١ فى عداد المستمعين المخلصين لأتباع سان سيمون ، وأصبحت صلته ببازار وأنفانتان وثيقة لدرجة أنه صدّر الطبعة الأولى من كتابه المعروف « من ألمانيا » de l'Allemagne بإهداء إلى الأب أنفانتان .

ويظهر لنا كيف تأثر ماركس بسان سيمون إذا عرفنا أن « هن » قد سبق ماركس فى الهجرة من ألمانيا بخمسة عشر عاماً ، وأن ماركس لم يصل إلى باريس إلا فى عام ١٨٤٤ حيث كان « هن » يتردد على صديقه ماركس بصفة مستمرة ، وكان مرشده وصديقه الشخصى فى العاصمة الفرنسية ، فهو الذى عرفه باتباع سان سيمون ، وجعله على صلة وثيقة بهم[٢].

(١) G. Gurvitch : Saint-Simon Sociologue. Paris, C.D.U., 1955 p. 24.

(٢) Charléty : op. cit., p. 78.

وفى عام ١٨٢٩ وقع اختيار أتباع سان سيمون على كل من أنفانتان وبازار كآباء لأسرتهم ثم استقر رأيهم على إنشاء كنيسة سان سيمونية تقوم بالدعوة للمذهب السان سيمونى أطلق عليها كنيسة شارع مونسينى Eglise de la rue Monsigny واختار الأتباع أنفانتان وبازار باباوات للكنيسة الجديدة .

وقد انضم إلى الجماعة فى ذلك الوقت كاتب حر يدعى « بيير لرو » Pierre Leroux صاحب جريدة العالم Globe فأوقف جريدته على الدعوة لمذهب سان سيمون[١] .

وبالرغم من أن الخلاف الذى بدأ بين بازار وأنفانتان فى مستهل عام ١٨٢٦ ، وبدا أنه قد انتهى بتوقف صدور مجلة « المنتج » ، لم يتلاشى نهائياً — رغم جهود الأتباع والمخلصين — فاشتد الصراع مرة أخرى بشكل سافر بين زعيمى مدرسة سان سيمون وانتهى باعتزال بازار لمهمته كأب للكنيسة السان سيمونية فى نوفمبر عام ١٨٣١ حيث وافته المنية فى يولية من العام التالى .

وقد كان خروج بازار نذيراً بتصدع فى صفوف المدرسة ، إذ أعقب اعتزاله خروج « بيير لرو » و « كارنو » Carnot و « لشفالييه » Lechevalier وأوليند رودريج ، واحتجاب جريدة العالم عن الصدور . وأصبح أنفانتان هو الأب الوحيد للكنيسة السان سيمونية واتخذ شعاراً له : « إن حياتى الدينية تهدف إلى أن أعيش من أجلكم ومن أجل نفسى ، بنفسى وبكم ، فى ذاتى وفى داخل نفوسكم[٢] » .

وعلى ربوة عالية فى أحد أحياء باريس تدعى « منيلمونتان » Menilmontant قاد أنفانتان أتباع سان سيمون منذ بدايه عام ١٨٣٢ إلى حياة صوفية روحانية ، حيث عاشوا بعيدين عن أنوار باريس ومباهجها ، يقومون بخدمة أنفسهم بأنفسهم ؛ وكانت خبرتهم هذه سبباً فى اتجاههم نحو فكرة « إلغاء نظام

---

(١) نفس المرجع السابق . ص : ٦١ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٧٢ .

الخدم « L'Abolition de la domestirité » واستطاع الأتباع وهم فى منيلمونتان أن يخبروا فكرة « الحياة الجمعية » وإمكان قيام « وحدة عالمية » ، ونزعوا فى تفكيرهم نزعة روحية ، واعتقدوا أن فى إمكانهم نشر دعوتهم بإثارة المشاعر واستهواء النفوس ، فوضعوا الأناشيد التى تهز المشاعر وتثير حماس الجماهير .

وبالرغم من خلو هذه الأناشيد من أية نزعة عدوانية فقد تعرضوا لصنوف من الإيذاء من جانب البوليس ورجال الجيش ، وقدموا إلى محكمة السين بتهمة تشويه القيم الأخلاقية . وقد تمخضت المحاكمات عن سجن الأب أنفانتان وميشيل شفالييه فى ١٥ ديسمبر عام ١٨٣٢ مما أدى إلى تشتت شمل الأتباع ومغادرتهم لربوة منيلمونتان .

وبين جدران سجن « سان بلاچى » Saint-Pélagie ، حيث كان يقضى الأب أنفانتان فترة العقوبة المحكوم بها عليه ، انبثقت فكرة الرحيل إلى الشرق ، لجمع شمل الأتباع من جانب ولمحاولة تطبيق المذهب الاجتماعى للمدرسة السان سيمونية من جانب آخر . كان حلم أنفانتان أن يجد المكان الملائم للتطبيق العملى للفلسفة الاجتماعية التى اعتنقها ، والتى أصبح الأب الروحى لها . وفى مذكراته الخاصة يقول : « الشرق ! تلك الكلمة الساحرة المليئة بالضياء والغموض ، الشرق الغامض غموض الصحراء ، الشرق معناه مصر . . . مصر الساحرة ، أرض فرعون وموسى ، أرض النيل . . . وما أدراك ما هى[1] » .

ولم يكن تعلق أنفانتان بالشرق وغموضه وبمصر وسحرها ، مسايرة منه للاتجاه الذى ساد فى عصره ، وإنما كان الشرق — بالنسبة لأنفانتان — ذا مظهرين ، أحدهما أخلاقى والآخر سياسى . وكان يعتقد أن الجانب الأخلاقى فى الشرق أقوى وأوضح منه فى الغرب ، ولهذا كان يرى ضرورة استغلال هذه الطبيعة الخيرة وربطها بالغرب برباط قوى يدفع بالإنسانية

---

(١) Archieves Saint-Simoniennes (Fond Enfantin) No. XXVIIIè, 12.

إلى الوحدة والتماسك[١] .

وفى اليوم الذى غادر فيه أنفانتان سجن سان بلاچى ، كتب فى مذكراته الخاصة مخاطباً مصر الساحرة يقول : « غادرت سجنى فى الغرب وسأضع نفسى فى خدمتك[٢] » .

أراد أنفانتان أن يجعل من الرحيل إلى مصر تطبيقاً عملياً للمذهب الاجتماعى للمدرسة السان سيمونية ، وعلى الأخص تحقيق فكرة الإنسانية العالمية — التى كان يحلم بها سان سيمون ولم يقدر له أن يحققها فى حياته — فصمم على أن يشد الأتباع رحالهم لشق قناة السويس . وفى هذا يقول أنفانتان : « إن السويس هى ميدان العمل بالنسبة لنا ، هناك سوف نحقق ما ينتظره العالم لكى يعترف بأننا رجال حقاً[٣] » ويضيف إلى ذلك قائلا : « إننا لسنا رجالا يطالبون بملايين الجنيهات ، كما هو حال المهندسين الإنجليز ، إننا على العكس عمال يعيشون على الكفاف . إن كل هدفنا أن يصبح هذا العمل العالمى حقاً ميداناً للحماس والتضحية لا يقل بحال عن ميدان القتال ، وأن النصر يجب أن يكون حليفنا نحن جنود السلام[٤] » .

ولكن الرحيل إلى الشرق لم يتم فى سلام ، فقد أراد الأتباع أن يجهروا بدعوتهم ، وأن يكسبوا أنصاراً لفكرتهم ، فغادروا باريس فى أول يناير عام ١٨٣٣ منتشرين فى جميع مقاطعات فرنسا ومدنها وتعرضوا للإيذاء واضطهاد البوليس والجيش . وبالرغم من ذلك فقد رحل إلى مصر خمسة وخمسون عضواً من الأتباع يمثلون كافة الحرف والمهن والفنون والصناعات[٥] .

---

(١) Charléty : op. cit., p. 219.

(٢) Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin T. IX, p. 109.

(٣) نفس المرجع السابق . ص : ٦٤ .

(٤) نفس المرجع السابق . ص : ١٠٩ .

(٥) أورد أنفانتان بياناً بأتباع سان سيمون الذين جاءوا إلى مصر حتى عام ١٨٤٥ وهم كالآتى بحسب مهنهم وحرفهم :

مهندسون : هوار HOART ، لامبير LAMBERT ، برينو BRUNEAU

فورفل FOURNEL ، براكس PRAX ، تورنو TOURNEUX

وقد كان لهذه الحملة السان سيمونية على مصر آثار واضحة فى تطبيق أركان مذهبهم الاجتماعى وعلى الأخص فكرة العمل الصناعى المنتج واستخدام الموسيقى والأناشيد كدعامة للعمل الاجتماعى التعاونى واستخدام الفن والألوان كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والاجتماعى إلى جانب محاولاتهم المتكررة لشق قناة السويس[1] .

ومن المهم أن نتعرف على أركان الفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية التى أقامها أتباع سان سيمون من بعده، وإلى أى حد تتفق فلسفتهم مع الخطوط الرئيسية لمنشئ المذهب السان سيمونى فى ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

دشارم DECHARME ، لينان LINANT ، لامى LAMY

درووو DROUOT

أطبـاء : برون PERRON ، فوركاد FOURCADE ، ريجو RIGAUD

دلون DELON ، شاربان CHARBIN ، كوجيا COGNIAT

لاشيز LACHEZE ، جالا JALLAT ، لوتور LAUTOUR

زراعيـون : أوليفيه OLLIVIER ، بوسكو دى دمبال BUSCO DE DOMBASLE

ألكسى بتى ALEXIS PETIT

كيمائيـون : جافارى JAVARY ، جوندريه GONDRET ، لففر LEFEVRE

(إخصائى معادن)

رسامون ومثالون : ماشرو MACHEREAU ، أشار ACHARD ، ألريك ALRIC

تجـار : ريبول REBOUL ، توشيه TOCHE ، چنيفوا GENEVOIS

سونرال SONNERAL ، مارتان MARTIN ، برنار BERNARD

محررون وأدباء : بارو HARRAULT ، أربان URBAIN ، ديجيه DUGUET

جرانال GRANAL ، كولان COLLIN ، نويل NOEL

مارشال MARECHAL ، ماسول MASSOL ، چانان JANIN

عمـال : ديمولار DUMOLARD (حداد) ، ألكسندر ALEXANDRE (ميكانيكى)

مهن أخرى : روچيه ROGE ، فليسيان دافيد DAVID ، بليشون PLICHON

جرانال الصغير GRANAL (jeune)، دافسو DAVESUS، فران FERRAND

كومب COMBES ، تاميسيه TAMISIER ، هولشتين HOLSTEIN

(١) راجع وثائق هذه المرحلة فى رسالتنا للدكتوراه بعنوان « أتباع سان سيمون ، فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر » . التى تقرر طبعها على نفقة جامعة القاهرة وتبادلها مع جامعات العالم .

الفلسفة الاجتماعية لأتباع سان سيمون

إذا تتبعنا عرض أتباع سان سيمون لمذهب أستاذهم فيما أسموه: "L'exposé de la doctrine"، نجد أن العرض الذى قام به الأتباع يتميز عن فكرة سان سيمون نفسه من عدة نواح[1]:

أولا : قاموا بصبغ مذهب سان سيمون وآرائه الفلسفية بصبغة الحتمية، واعتبروها لازمة التحقيق لا محالة.

ثانياً : حرصوا على أن يبرزوا فى وضوح ما هنالك من علاقة بين التجمع والتنافر وركزوا اهتمامهم على عنصر التشابك والصراع فى العصر الحاضر.

ثالثاً : أكدوا وجود التركز الصناعى، وأيدوا فكرة تجمع وسائل الإنتاج فى المجتمع الحديث.

رابعاً : وجهوا النظر إلى ضرورة وجود عنصر السلطة القوية فى التنظيم الصناعى، ولكنهم لم يوضحوا مسألة تكوين طبقة المنتجين.

خامساً : تخلوا عن فكرة أستاذهم فى ضرورة زوال الدولة فى المجتمع، وأصبحوا من أشد أنصار قيام الدولة كأساس للتنظيم الاجتماعى.

سادساً : خصوا فكرة «الطاعة عن طريق الحب» بأهمية عظيمة، مما أضفى على دعوتهم طابعاً دينياً خاصاً. فهم ينادون بضرورة زوال استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وبالتالى تقدم الأعمال العلمية؛ بمعنى أن يكون استغلال وسائل الإنتاج فى العالم عن طريق التقدم الصناعى وحده.

يقول أتباع سان سيمون فى نداء لهم:

«أيها السادة والعبيد، أيها النبلاء والسوقة، أيها الأشراف والأتباع،

---

(١) Georges GURVITCH: Saint-Simon Sociologue. Paris, C.D.U., 1955, p.: 15.

أيها الملاك والمزارعون : المتجون منكم وغير المتجين ، إن الإنسان لا يزال حتى الآن يستغل أخاه الإنسان . . . لهذا وجب قيام اتحاد عالمى يمنح كل شخص حسب قدراته ، ويعطى كل قدرة حسب نوعها ؛ وهكذا لا يستغل الإنسان أخاه الإنسان ، بل يتحد الجميع لاستغلال العالم الذى يصبح طوع إرادتهم [١] . »

ويلاحظ أن نشاط أتباع سان سيمون لم يكن محصوراً فى نطاق علم الاجتماع أو الاقتصاد أو التاريخ ، بل امتد إلى فلسفة التاريخ بالذات . وفكرتهم عن فلسفة التاريخ ترتكز على الاعتقاد فى توافق العصور التنظيمية Les époques organiques والعصور النقدية Les époques critiques . فالأولى تتميز بوجود نظام طبقى ، ونوع من التفانى وإيمان بالله ؛ فى حين أن الثانية تتميز بالفوضى والأنانية وعدم الاعتقاد فى الله . وفى هذه العصور النقدية يكون الصراع على أشده ، مما يدعو إلى ظهور الاتحاد القائم على الصناعة لوضع حد له [٢] .

وقد نتساءل — فى مثل هذه الملابسات — عما إذا كان من المحتمل ظهور عصر نقدى مرة أخرى ؟ ومع أن أحداً لم يتصد للإجابة على هذا السؤال ، إلا أنه ليس فى وسعنا أن نتصور أن يكون الرد بالإيجاب إذا كان استغلال الإنسان لأخيه الإنسان سيحل محله المجهود الجمعى لاستغلال الطبيعة . وإذا تصورنا انعدام الصراع وحلول الوحدة العالمية محل هذا الصراع بغية وقاية الجنس البشرى روحياً وعقلياً وعضوياً .

والتحفظ الوحيد الذى تقوم عليه فلسفة التاريخ عند أتباع سان سيمون هو عنصر الجبرية الذى لا حول للإنسان أمامه ولا قوة ؛ فهم يتساءلون : إذا كان يوجد فى تسلسل الظروف نوع من الصرامة يجعل حوادث المستقبل نتيجة ضرورية لأحداث الماضى ، فهل يخضع الجنس البشرى نتيجة لذلك إلى قانون

---

(١) Exposé de la doctrine. (Ed. Bouglé p : 94..

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٨٩ .

الجبر والإلزام ؟ ؛ ثم يردون على ذلك قائلين : « إن هذا ممكن إذا تيسر للإنسان أن يتغاضى كليه عن رغباته وآماله وأن يستقى من ماضيه خيوط مستقبله ؛ ولكن إنساناً كهذا لم يخلق بعد ، فالجميع يظهرون قدراً من العاطفة نحو مجتمعهم ، والجميع يتطلعون بارتياح إلى المستقبل مهما كانت ظروف الماضى .» وهنا يتدخل عنصر من التلقائية والحرية لا يمكن تعميمه مع عنصر الجبرية إلا عند إثارة موضوع التعاون الروحى بين الإنسان وخالقه ؛ « فمن وجهة النظر الدينية يظهر نوع من النشاط المملوء بالثقة والحب ، لأنه كلما كان الإنسان منتبهاً إلى مصيره المحتوم اتجه فى أفعاله وجهة تتفق مع أوامر الله وإلى تحقيقها ... فكلما تأكد من وجهته سدد آماله نحوها وأصبح هذا الاتجاه تلقائياً . فهو يعرف قبل أن يأتى أى فعل النتائج العامة التى ستترتب على فعله ، ويستخدم لذلك كافة ملكاته وقواه العقلية . وهكذا يصبح حراً وواعياً لمصيره الذى يمكنه أن يحوله إذا أراد وجهة أخرى أو يعجل بتحقيقه وفقاً للظروف[1] . »

هذا الموقف من أتباع سان سيمون ينبئ بإدخالهم العنصر الدينى فى مذهب أستاذهم ، ولم يكن ذلك واضحاً فى الاتجاه الإنسانى التحررى فى آراء سان سيمون نفسه .

° ° °

وأهم سمة فى تفكير أتباع سان سيمون هو تحليلهم للتحول التدريجى للملكية . « فهذه الكلمة الضخمة التى نسميها الملكية كانت تعبر فى كل مرحلة من مراحل التاريخ عن معانى مختلفة وأفكار متباينة » ومع ذلك فيمكن تعريف الملكية بأنها « حق استخدام أدوات للعمل أو للثروة لا يتجه مباشرة نحو الاستهلاك ، ويمكن الحصول على دخل منها أو ما يعبر عنه رجال الاقتصاد بجوهر الإنتاج[2] » .

---

(١) نفس المرجع السابق : ص : ١٧٧ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٢١٤ .

فى المجتمع الذى تلغى فيه كل ميزة ترجع إلى الوراثة ، يرمز انتقال الملكية عن طريق الميراث إلى انتقال من العصر الإقطاعى الحربى إلى وراثة البؤس والتعاسة . فتوارث الثروات ينتهى بالسيطرة والتحكم فى ملكية وسائل الإنتاج التى تؤدى إلى استغلال الطبقة العاملة . « ولا يوجد من يفكر فى هذا العامل ، الذى تدفعه حالة البؤس التى يعانيها إلى المذلة والحرمان التى تعد سبباً فى نوع جديد من الشقاء . فهو يعيش فى حلقة مفرغة تثير كل مرحلة منها الاشمئزاز والرهبة . . . هذه هى حالة أغلب العمال الذين يمثلون فى كافة المجتمعات الغالبية العظمى من المواطنين . فإذا كان من الضرورى أن يتلاشى استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، فإن تكوين الملكية التى هى أساس هذا الاستغلال يجب أن يتلاشى أيضاً [١] » .

ويضيف أتباع سان سيمون إلى ذلك : « إن الملكية إذن يمكن ، فى مراحل مختلفة ، أن تنظم بطرق عديدة . وقد أصبح من الضرورى اليوم حدوث تغير أخير فى الملكية ؛ وهذا يحدث أساساً نتيجة لفكرة تبعية وسائل الإنتاج للدولة ونتيجة لإلغاء حق الوراثة الفردية .

لم يكن سان سيمون صريحاً وواضحاً فى آرائه فى هذه المسألة بالذات ، ولهذا فإن أتباعه حاولوا فى عرض مذهب أستاذهم تأكيد « أن القوة هى — إلى يومنا هذا — الرمز الوحيد للملكية ، ولكن هذا الرمز سوف يقوم فى المستقبل على العمل والإنتاج» . والانتقال إلى النظام الجديد للملكية لا يمكن أن يحدث فجأة وعن طريق القوة ، ولكن ببطء وبشكل تدريجى ، لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بالعمل الحماسى المستمر وتقدير أهمية هذا التحول . والقوة الوحيدة التى يمكن الالتجاء إليها للانتقال إلى النظام الجديد للملكية هى «القوة الإنتاجية ». [٢]

وينتهى أتباع سان سيمون من تحليلهم للملكية إلى التصريح الآتى :

---

(١) نفس المرجع السابق : ص : ٢٤٥ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٣١٧ .

« عندما نحارب الملكية الناشئة عن حق الاغتصاب أو حق الوراثة ، فإننا نصارع العصور القديمة والعصور الوسطى من أجل نظام الملكية فى المستقبل ؛ تلك الملكية التى سوف يحصل عليها الفرد نتيجة للعمل العلمى لا نتيجة للحرب أو للنهب والسلب ؛ تلك الملكية التى سوف يحصل عليها الفرد نتيجة لميزاته الشخصية لا نتيجة لمولده أو لعنصره . . . فمع حق الملكية فى النظام الجديد ، تتلاشى العادات والميول غير الاجتماعية التى تصبح موضعاً للامتعاض والكراهية ويحل محلها الشعور بقيمة العمل وقدسيته ويصبح التفانى والعبقرية هما المقياس الأساسى للملكية[١] » .

* * *

وبالرغم من ذلك ، فإن هذا النظام الجديد للملكية يتيح نوعاً من الطبقية الصناعية . فكل عمل صناعى خاص أو وحدة صناعية تكون فى حاجة إلى تنسيق فى نظامها ، وبالتالى فى حاجة إلى رجال يختصون بملاحظة ذلك وإجراء التعديلات اللازمة تبعاً لظروف العمل ؛ أو بمعنى آخر فى حاجة إلى رجال قادرين على تمييز العناصر الضرورية للإنتاج من العناصر غير المنتجة[٢].

هؤلاء الرجال يكونون ما يسمى بالقيادة الصناعية Les magistrats de l'industrie فهم يمثلون حقاً سلطة استبدادية ، وإن كانت قاصرة على الناحية الفنية الإنتاجية . هؤلاء القادة الصناعيون يرى أتباع سان سيمون ضرورة تعيينهم بواسطة الدولة المالكة لوسائل الإنتاج[٣] .

ولكى تتقبل الطبقة العاملة هذا النظام وهذه السلطة الاستبدادية ، يقترح أتباع سان سيمون وسيلتين[٤] :

---

(١) نفس المرجع السابق : ص : ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٢) نفس المرجع السابق : ص ٣٩٥ .
(٣) نفس المرجع السابق : ص ٣٩٧ .
(٤) نفس المرجع السابق : ص ٤٠٢ – ٤٠٦ .

الوسيلة الأولى : هى قيام نوع من التعليم المهنى والأخلاقى للعمال .

والوسيلة الثانية : قيام ديانة جديدة تعمل على ربط الإنسان بأخيه الإنسان .

وتفضى الوسيلة الأولى فى الواقع إلى الوسيلة الثانية ؛ إنها تدفعنا إلى التساؤل عما إذا كانت الإنسانية ستعيش فى المستقبل فى ظل ديانات معينة أم ستتحلل نهائياً من الرابط الدينى .؟

وقد كانت الإجابة عن هذا السؤال موضع اهتمام أتباع سان سيمون فى محاضراتهم الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة والتى اختتموا بها سلسلة محاضراتهم عن عرض مذهب أستاذهم .

يقولون إن سان سيمون جاء إلى هذا العالم لكى يؤكد الترابط الطبيعى بين الدين والعلم . « فالفنون والعلوم والصناعة تمثل الثالوث الفلسفى الذى كشف عنه سان سيمون ؛ وأن الذين يقولون بوجود تعارض بين الناحية الدينية والناحية الميتافيزيقية والناحية الوضعية مخادعون ، لأنه فى كافة العصور كان العلم دائماً ذا مظهر دينى لأن كافة الاكتشافات لم تظهر إلا داخل جدران المعابد [١] . »

والديانة الجديدة التى ينادى بها أتباع سان سيمون تهدف — كما كان يرى أستاذهم — إلى توحيد الإنسانية والحب والله . فالإنسانية تعيش فى نفس الوقت حياة زمنية موقوتة وحياة خالدة أبدية ؛ والأساس الذى يربطها بالكائن الأعلى هو الحب . « ولا يمكن أن ترتبط به بطريقة أخرى ما دام أن فكرة الإنسان عن الله ليست سوى حالة من الاعتقاد بالوحدة والنظام والتناسق [٢] . »

والدين لم يكن يتلاشى إلا فى العصور النقدية عندما كانت تفتقر إلى الوحدة . « أما ديانة المستقبل ، فيجب أن تكون تعبيراً عن التفكير الجمعى للإنسانية ، ومظهراً لجميع معتقداتها ، ونظاماً لكافة تصرفاتها [٣] » .

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٤٤٣ — ٤٤٥ .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ٤٩

وبالرغم من أن أتباع سان سيمون قد قاموا بشرح مظاهر ديانتهم الجديدة ومصير الإنسان ، إلا أنهم لم يحددوا كيف يمكن تحقيق هذه الديانة والدعائم الاجتماعية التى تقوم عليها على وجه الدقة .

* * *

وإلى جانب ذلك فقد كانت السياسة والاقتصاد السياسى شيئين مترابطين كل الارتباط فى نظر أتباع سان سيمون ، وأصبح شعارهم يقوم على أركان ثلاثة[١] .

أولا : جميع النظم الاجتماعية يجب أن تهدف إلى تحسين المستوى الأخلاقى والجسمانى والعقلى للطبقة الأكثر عدداً والأشد حرماناً .

ثانياً : جميع المزايا المكتسبة عن طريق المولد يجب أن تزول بدون أى استثناء

ثالثاً : يجب أن يمنح كل فرد بحسب قدرته ، وأن يعطى لكل قدرة حسب إنتاجها .

يرى أتباع سان سيمون أننا نعيش فى مجتمع مريض ، وأن الحكومة لا قيمة لها فى مثل هذا المجتمع ، « وحدوث تجديد اجتماعى أصبح أمراً قريب الوقوع ، حيث لا يكون هناك محل لبقاء الإقطاع المغلوب على أمره إلا فى ذكريات الناس ، لأن هذا الإقطاع قد استنفد اليوم مقومات وجوده فلم يعد له فى مجتمعنا الحاضر إلا مظهراً واحداً وهو التبطل الذى يعتبر آخر مظهر من مظاهره[٢] » .

ويجب الانتهاء من القضاء على النظام القديم ، أى القضاء على « الحق الممنوح لشخص فى أن يعيش عالة على أقرانه ، وحق استغلال الإنسان لأخيه الإنسان[٣] » . ويقولون إن هذا الحق الفاسد كان يعتقد أنه قد زال ،

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ١٦٨ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ١٧٢ .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ١٧٥ .

لأننا اعتقدنا أن مسألة توفير السعادة الاجتماعية للمواطنين قد حلت فى اليوم الذى تحطمت فيه النظم القديمة . ولكن الذى حدث هو أننا حطمنا هذه النظم القديمة دون أن نوجد ما يحل محلها . فضلا عن أن الاقتصاد السياسى أتاح نوعاً من الحرية الاقتصادية أو بمعنى آخر ترك للظروف عملية توزيع الثروة الاجتماعية[١] » . فالاقتصاديون لم يراعوا فى هذه الحرية « سوى توازناً بين المصالح الواجب حلها ؛ والتى يعتقدون أنها ستحل جميعاً وفقاً لقانون العرض والطلب[٢] » .

ويرى أتباع سان سيمون أن الاقتصاد السياسى لا يعترف بالأخلاق ، فالاقتصاديون يعتبرون الإنسان وسيلة فى حين أن الأخلاقيين يعتبرونه غاية فى ذاته . ولهذا يرون وجوب إخضاع الاقتصاد السياسى للأخلاق .

والعلاج الوحيد فى نظرهم يكون عن طريق إلغاء قانون العرض والطلب ، وإلغاء البيع والشراء ؛ فهم يعتقدون أن هذه طريقة فاسدة فى توزيع الإنتاج . ويستندون إلى ذلك بقولهم : أنه فى داخل نطاق الأسرة ، لا يوجد أثر لقانون العرض والطلب ولا يوجد أثر لعمليتى البيع والشراء . وأنه خارج نطاق الأسرة فقط نجد أن لكل شيء ثمناً ، وأن كل شيء يقدر عن طريق النقود . ولذلك فهم يرون قيام المجتمع كأسرة واحدة يتماسك جميع أفرادها ، حيث لا يكون هناك فوائد ولا خسائر لشخص ما ؛ وعندئذ لا نجد مبرراً لقيام قانون العرض والطلب ولا نجد أثراً لعمليتى البيع والشراء[٣] .

وتصحيح الجانب غير الأخلاقى فى القانون الاقتصادى الذى يعتبر العقبة فى سبيل أى تقدم اجتماعى — فى نظر أتباع سان سيمون — فإنهم يرون ضرورة تحويل نظام الملكية « فالملكية يجب أن لا تظل فقط ملكية فردية ، بل يجب

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ١٨٤ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ١٨٥ .

(٣) HALEVY : La doctrine economique des Saint-Simoniens. Paris, Revue du Mois, 1908. p. 48.

أن تصبح ملكية اجتماعية . فسان سيمون يعتبر الأرض أداة للعمل ، حيث تكون الدولة وحدها هي المالك وحيث تقوم بتوزيع الدخل على كل فرد بحسب مقدرته حتى يتم توزيع الإنتاج على كل فرد بحسب عمله [١] » .

يقول أتباع سان سيمون أنه صحيح أن التوزيع سوف يكون غير عادل ، ولكن أى توزيع عادل سوف يتضمن اعتداء أشد وعدم عدالة أكثر وضوحاً من عدم المساواة الحالية . فعدم المساواة الطبيعية هى الأساس الفعلى لكل جماعة ؛ ولكن ما دام أن الجميع يعملون فالجميع موظفون . . والملكية هى هذه الوظيفة ، « فلا يعتبر الفرد مالكاً إلا عن طريق نصيبه فى الزراعة أو فى الصناعة . هذه الملكية لها دخل هو المرتب الذى يمنح جزاءاً للعمل الذى يؤديه الشخص [٢] » .

ولكن هل يمكن القول بأن السعادة التى يشعر بها الفرد نتيجة للتملك ؛ سوف تتأثر نتيجة لاشتراكية وسائل الإنتاج ؟

يقول أتباع سان سيمون أن هذه السعادة لن تتأثر ، لأن السعادة الناشئة عن التملك ما هى إلا نتيجة للارتباط بالعادات والتقاليد . وأن الزارع الذى يفلح أرضاً دون أن يملكها يحبها أكثر من ذلك الذى يملكها دون أن يفلحها . فإن الحاجة إلى التملك لم تعد عنصراً من عناصر السعادة بقدر ما هى عادة سيئة [٣] .

ولكن إلغاء الملكية معناه إلغاء حق الوراثة ، وأن الوراثة — كما نعرف — هى الرباط المادى الذى يربط الأجيال بعضها بالبعض الآخر ، وأن حق الوراثة يعد من أقوى حوافز النشاط والعمل . فالأب يعرف أن سعادة ابنه هى ثمن ما يبذله من جهد وعمل ولهذا فهو يجد ويعمل .

يقول أتباع سان سيمون رداً على هذا الاعتراض : إن الوراثة تعتبر بلا شك حافزاً قوياً على العمل حتى يومنا هذا . ولكن فى اليوم الذى يشغل فيه

(١ ، ٢) نفس المرجع السابق : ص ١٩٧ .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ٩٩ .

كل شخص الوظيفة التى تناسبه ، وفى اليوم الذى يصبح فيه القيد الذى يربط العمال ، بدلا من أن يكون قيداً حديدياً يصبح رباطاً قوامه المحبة والتعاون المتبادل ، فإن العمل سوف يكون محبباً ومرغوباً فيه ، عملا يجد فيه كل فرد السعادة والثروة والمجد [١] .

ولهذا ينفى أتباع سان سيمون الرأى القائل بأن الرباط الأسرى سوف يتفكك مع إلغاء حق الوراثة ويردون على ذلك قائلين : « إذا كان هذا صحيحاً فهل معنى ذلك أن الذين لا يرثون ليس لهم أسرة . . هل يريد أصحاب هذا الرأى إقناعنا بأن الأسرة ميزة يتميز بها الأثرياء فحسب [٢] ؟ » .

يقول أتباع سان سيمون أن حق الوراثة ليس فى الغالب سوى سبباً من أسباب الفوضى والتفكك ، وأن إلغاء الوراثة لا يؤدى إلى تحطيم الرباط العائلى بل على العكس سيمنحها رباطاً أقوى ويوفر بين أفرادها الحنان والتضامن الذى يقضى عليه الصراع فى سبيل الحصول على الميراث بوفاة رب الأسرة وانتظار هذا اليوم الموعود بفارغ الصبر .

يقول أتباع سان سيمون : « ثقوا فى كلام أستاذنا ، فاليوم الذى وعد به سان سيمون يقترب منا حيث يكون لكل فرد ميراثاً يحصل عليه ، اليوم الذى سوف يتلقى فيه كل فرد من الدولة تعليماً يتفق واستعداده ، وعملا يتلاءم مع طبيعته وميوله [٣] » .

ويرى أتباع سان سيمون أن المجتمع يتفكك وينحل لا عندما يحكم أكثر من اللازم ، ولكن عندما يساء حكمه ، عندما يتنكر الرؤساء والقادة لمشاعر ورغبات وحاجات المواطنين . ولهذا فإن الإصلاح الواجب للمجتمع يجب أن يكون عماده إصلاح أخلاقى حيث تستبدل البرامج التعليمية القائمة بأخرى ملائمة وحيث يعتبر إصلاح الروح أجدى من الاهتمام بالمادة ، وحيث تتغير نظرة المواطنين وتحل النزعة الإنسانية العالمية محل النزعات القومية الضيقة ، وحيث يتوفر العمل لكل مواطن ، وحيث تصبح الدولة هى المالكة لكافة وسائل الإنتاج .

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ١١٣ .

(٢) Exposé de la doctrine, p. : 198.

(٣) نفس المرجع السابق : ص ٢٢٣ .

محاولات لتطبيق المذهب فى مصر

فى الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٨٣٣ غادر الأب أنفانتان مع فريق كبير من الأتباع ميناء مارسيليا ، على ظهر باخرة تجارية تعرف باسم « ولى العهد » Le Prince héritier وعند ما صعد الأب إلى الباخرة ، أنشد الأتباع نشيد « تحية الأب » ، وقضوا ليلتهم الأولى حتى مطلع الفجر — فى أناشيد وألحان سان سيمونية (١) .

قطعت الباخرة فى رحلتها حتى ميناء الإسكندرية تسعة عشر يوماً ، وفى يوم الوصول رفعت الباخرة على ساريتها شعار مدرسة سان سيمون . والحق أن أنفانتان لم يكن قادراً على إدارة أى مشروع من المشروعات العامة لأنه كان قد ابتعد عن مهنته كمهندس منذ زمن طويل ، ولكن وجوده — بالرغم من ذلك — كان ضرورياً وفعالا ، فقد كان الباعث الروحى لنشاط الأتباع أجمعين .

أسند أنفانتان مهمة التنفيذ الفعلى لمشروع قناة السويس إلى فورنل Fournel .

وكان هذا الأخير يحس إحساساً كاملاً بالأهمية السياسية والاجتماعية لوصل البحرين الأبيض والأحمر ، وكان يأمل أن يؤدى تنفيذ هذا المشروع إلى تغيير كامل فى عادات الأوربيين فيندفعون نحو الشرق .

وفى ١٣ يناير عام ١٨٣٤ قدم فرديناند دليسبس نائب قنصل فرنسا فى مصر الأب أنفانتان والمهندس فورنل إلى محمد على . وحاول فورنل أن يقنع محمد على بفكرة شق قناة السويس ولكنه لم يوفق لأن هذا الأخير كان مشغولا بفكرة إقامة قناطر النيل لتنظيم مياه الفيضان . وتحت إلحاح فورنل طلب محمد على منه أن يعرض مشروعاً تفصيلياً على المجلس الأعلى وظل فورنل يصارع فى سبيل فكرته ولكن المجلس لم يأخذ بوجهة نظره وقرر إقامة القناطر (٢) .

(١) شارلتى : تاريخ الحركة السان سيمونية . ص : ٢٩ .

(٢) Papiers de Ch. LAMBERT No. 7752-4.

انهارت آمال فورنل فى تحقيق فكرة الإنسانية العالمية التى كان ينشدها من وراءرحلته إلى مصر ، وصمم على العودة إلى فرنسا بعد أن كتب إلى أنفانتان يقول : «لقد جئت إلى الشرق لتنفيذ الفكرة التى ملكت علىّ شغاف قلبى ، ولكنك لم تحاول أن تغذى هذه الفكرة بجهودك [١]» . ورد عليه أنفانتان برسالة طويلة يقول فيها : « إنك تشك فى أن المستقبل سوف يربط بأحداث حياتنا الأهمية التى ترتبط بها اليوم . إننى أوافقك تماماً فى هذه المشاعر ، وأرجو أن تعتبر مشاركتى فى مشروع القناطر كعمل صناعى بحت ، لا يرتبط بشكل قوى بفكرتنا بالنهوض بالإنسانية التى نادى بها سان سيمون ونادينا بها من بعده ... إننى أستهل حياتى الصناعية بعملى فى قناطر النيل إنها رسالة جنيف بالنسبة إلىّ [٢] ، لقد هبطت بأهدافى مؤقتاً إلى مستوى المشروعات العملية العادية . . . وإننى على استعداد لأن أنتظر أجيالا إذا أراد الله ذلك حتى تتحقق رسالتنا يوماً ما [٣]» .

وأسرع أنفانتان فى توحيد صفوف الأتباع حول مشروع قناطر النيل باعتبار أن العمل الصناعى المنتج يعتبر ركناً من أهم أركان الفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية ، وأن كافة القوى الحقيقية فى المجتمع تجدها مشخصة فى الصناعة وعلى هذا فإن العدالة الاجتماعية تقتضى منا تحرير الأفراد من حالة الرق والاستعباد التى يعيشون فيها ، حتى يحكمون أنفسهم بأنفسهم بدلا من أن يستمروا تابعين للطبقة الإقطاعية فى المجتمع . وهذا يتحقق عن طريق تنظيم مياه النيل وزيادة الإنتاجية الزراعية التى سوف تساعد على الاتجاة نحو التصنيع فيما بعد .

وقد حاول أتباع سان سيمون أن يدخلوا فكرة الموسيقى فى العمل التعاونى — تلك الفكرة التى حاول سان سيمون أن يدخلها فى الصناعة ولم يتمكن من

---

(١) Archives Saint-Simoniennes (Fond Enfantin).
Lettre de Fournel au Père, 1834, No. XIX, 9.

(٢) رسالة جنيف هى أول الأعمال الفكرية لزعيمهم سان سيمون .

(٣) Lettres du Père, 3 Avril 1834, Fond Enfantin, T. XXIX, 129.

تحقيقها فى حياته — فتولى روچيه Rogé أحد الأتباع المتخصصين فى الموسيقى ، إعداد مقطوعات موسيقية تنزع إلى إثارة المشاعر والحماس إلى جانب الأناشيد الحماسية ومن أهم هذه الأناشيد « لا كارمانيول » و « نشيد افتتاح العمل فى المعبد » . وتقوم هذه الأناشيد على تأكيد أن العمل الفردى لا قيمة له ، باعتباره إنتاجاً مفككاً لا يؤدى إلى سعادة الإنسانية وتقدمها . كما أن العمل الفردى ينزع نزعة أنانية ، فى حين أن العمل الجمعى التعاونى يتجه نحو تحقيق التقدم المضطرد للجنس البشرى لأنه يبغى صالح المجموع .

ويلاحظ فى نشيد افتتاح العمل فى المعبد ، أنهم يصبغون العمل بصبغة دينية ، أو بمعنى أصح أنهم يضفون لوناً أخلاقياً عل العمل . فيردد العمال فى نشيدهم ، لقد وهبناك أيها الشعب يومنا الدينى . . . يوم الأحد ، الذى كرسته المسيحية للتفرغ إلى الروحانيات . فالعمال السان سيمونيون يهبون هذا اليوم المقدس لكى يعملون فيه عملا دنيوياً ، عملا يزيد القدرة الإنتاجية ، ويؤدى بالتالى إلى تلبية حاجات المواطنين وسعادة البشر أجمعين .

وتهدف هذه الأناشيد إلى تأكيد ضرورة قيام وحدة إنسانية شاملة ، دون اعتبار لاختلاف دينى أو عنصرى ، ويمكن أن يتحقق ذلك بالاتجاه نحو التصنيع الذى يمكن عن طريقه تزويد المجتمعات بالصفات الأخلاقية اللازمة للمجتمع المعاصر . فالعمل الصناعى بوصفه يتجه نحو تحقيق صالح المجتمع ، هو عمل أخلاقى ، بل إن عمال الصناعة — كما يقول سان سيمون — هم وحدهم الذين يتسمون بالصفات الأخلاقية التى تتفق وحاجات المجتمع المعاصر ، وأن كل من لا يعمل أو ينتج فهو محروم من الأخلاق العمالية التى تقوم على المحبة والتعاون والإخاء والبعد عن الأنانية .

ويلاحظ أن أتباع سان سيمون قد اتخذوا من الموسيقى والأناشيد وسيلة لتنمية الوعى الأخلاقى ، باعتبار أن الموسيقى أداة تعبيرية أقدر على الاستمالة من الخطب والمواعظ الأخلاقية فضلا عن أن الأناشيد وخاصة التى تحتاج إلى ترديد جمعى ،

أداة ناجحة لربط الجماعات بعضها ببعض وتوحيد الأهداف والغايات. كما أنهم اعتبروا الفنون الجميلة من تصوير ونحت ورسم بالفحم وبالزيت وغير ذلك ، جزءاً من رسالتهم للسير بالمجتمع نحو التصنيع. فجاء منهم مجموعة ممتازة من الفنانين من بينهم « ماشرو » Machereau « وأشار » Achard و « ألريك » Alric ، وقد سجلوا لوحات تمتاز بالواقعية التى كانت هى قوام فلسفتهم الاجتماعية أيضاً .

وحاول أتباع سان سيمون أن يرفعوا من مستوى حياة الطبقة الكادحة وأن يثيروا الابتكار والتجديد فى الإنتاج ؛ فقد لاحظ أنفانتان ... « أن العامل يمضى طوال عمره عاملا على أن يرضى ذوق غيره ، فهو يعيش إذن لغيره لا لنفسه . وهو يجهد نفسه دائماً ليرضى أحط ناحية من نواحى النفس الإنسانية . . . فتكون النتيجة أن يربح المنتج أضعاف ما ينال العامل من عمله ، وبهذا يخلق جو من التطفل على صفات الإنسان مستمداً من إرضاء نزعاته الكاملة وشهواته الدنيئة ، يعيش عليهما العامل والمنتج كلاهما عيش تطفل وخمول ، لا عيش جد وابتكار حقيقى. والإنسان أينما ولى وجهه باحثاً فى صور الإنتاج الصناعى لا يرى إلا هذه النزعة قائمة فى كل ما تنتج اليد العاملة ، فالإنتاج اليومى عبارة عن إخراج كميات كبيرة ترضى من المستهلك أحط نزعاته ، لا عبارة عن إخراج صفات فى المنتجات ترضى ذوق العامل وفيها من القيمة بقدر ما يؤخذ تلقاءها نقداً . وعلى الجملة نستطيع أن نقول بحق إن مصنوعات العصر الحاضر (القرن التاسع عشر) نتاج لفكرة ثابتة فى رأس المنتج يدفع العامل على تنفيذها قصراً عنه ، قوامها استخدام المشاعر الدنيئة والشهوات السافلة من طريق الإغراء لابتزاز أموال الجماهير ، والسرقة عن طريق أخذ كميات من النقد لا توازيها صفات المصنوعات المبذولة فيها [1] » .

وعلى هذا اهتم أتباع سان سيمون لتوجيه الإنتاج توجيهاً يرقى بمستوى العامل

---

(١) ENFANTIN : Correspondances politiques (1838-1840) Paris, le Crédit, 1849, p. 102.

الفكرى والأخلاق ، وساهم عدد كبير منهم فى إقامة المدارس العليا فى مصر ، وحاولوا أن يوجهوا التربية وجهة اجتماعية ، باعتبار أن الهيئة الاجتماعية لا يمكن أن يتحقق لها الاستقرار والدوام إذا لم يكن لها قانون عام يحدد لأعضائها موضوع نشاط مشترك . فالحياة الفردية ليست إلا جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية ، ولهذا فإن التربية يجب أن تكون تربية اجتماعية لا ترى فى الفرد ما يفصله عن المجتمع ، بل على العكس تعمل على ضمه تحت لواء هذا المجتمع .

يرى أتباع سان سيمون أن الحب هو رابطة الحياة الاجتماعية ، وعلى الحب تقوم الحياة الاجتماعية كلها ، فالفرد لا يعيش إلا من أجل هذا الحب ، الذى إذا تمكن من تحقيقه شعر بسعادة قصوى . أما كيف يتحقق اكتشاف هذه الغاية المثلى ، وتوفيرها للمجتمع الإنسانى ، وتمكينه من الوصول إليها ، هذا هو محور تفكير أتباع سان سيمون فى التربية الأخلاقية الاجتماعية ، فهم يرون أن الرابطة العالمية التى تربط الإنسانية المفككة المتصارعة ، سوف تتحقق على أكمل وجه إذا توافر للإنسانية عنصر الحب والتفاهم ، هذا الحب هو ما أسماه أتباع سان سيمون « الديانة الجديدة » .

فالدين فى نظر أتباع سان سيمون ، ليس مجرد تفكير أو تجريد فكرى فردى بمعنى الكلمة ، أو أحاسيس داخلية منفصلة عن مجموع الأحاسيس والقواعد الخاصة بأفكار الفرد التى تتأثر بالأعمال الاجتماعية وبالحياة السياسية ، وإنما الدين هو انفجار العقل الجمعى للإنسانية بأكملها . وبالإضافة إلى ذلك فهم يرون أن التعليم كالدين يؤدى مثل ما يؤديه الدين من آثار إذا أحسن استخدامه وتوجيهه ، وقد ينحدر حتى يصبح عملا رتيباً فيفقد بذلك معناه وطبيعة فوائده التى ترجى منه .

وتهدف التربية الاجتماعية فى مذهب سان سيمون إلى تكوين وحدة متكاملة من التفكير والثقافة « لأنه لا يمكن أن يوجد مجتمع لا يقوم على أفكار مشتركة فكل فرد يود أن يحس بالرباط الذى يربطه بالآخرين ، ذلك الرباط الذى يعد

الضمان الأكيد للوحدة المتبادلة[١] » .

ومن أهم مظاهر فلسفتهم الاجتماعية استخدام الألوان كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والاجتماعى. بل تكوين وحدة عقلية وفكرية متناسقة تدعو إلى قيام إنسانية موحدة الأهداف والغايات . ولهذا كانوا يحرصون جميعاً على ارتداء زى موحد يشمل الألوان المثلثة التى ترمز إلى الثورة الفرنسية ، وهى الأبيض والأحمر والأزرق . فالسروال أبيض والقميص أحمر ومنديل العنق أزرق . والمعنى الاجتماعى الذى ترمز إليه هذه الألوان المثلثة لا يتضمن فقط رمز الثورة وعلمها ، وإنما لها دلالة أخرى تعتمد على المذهب الاجتماعى للمدرسة السان سيمونية ، فاللون الأبيض عندهم هو شعار الحب ، ذلك الرباط الأصيل الذى بدونه لا يستقيم التعاون والإخاء بين المواطنين ، فهما فى نظر أتباع سان سيمون العنصرين الضروريين لكل تقدم اجتماعى . أما اللون الأحمر فيرمز إلى العمل ؛ إلى الفضيلة التى هى من ضرورات الحياة الاجتماعية فى المجتمع المعاصر . وأما اللون الأزرق فهو يعبر عن عنصر الإيمان ، ذلك العنصر الذى يعتبره أتباع سان سيمون ضرورياً للقيام بأى عمل إنتاجى وبالتالى لتوافر الإخاء والمحبة بين المواطنين.

وقد نجح الفنانون من أتباع سان سيمون فى إنشاء مدرسة للرسم بالجيزة تقوم على مبدأ الحرية الفنية ، وأشاعوا شعوراً عاماً بأهمية الفن والألوان كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والاجتماعى .

وإذا كان إنشاء مدرسة للطب ، ومدرسة للفرسان ، ومدرسة للمهندسين ، وإقامة مزرعة نموذجية بشبرا إلى جانب إعداد وتنفيذ مشروع قناطر النيل ، تعد أدلة واضحة لمحاولات أتباع سان سيمون فى تطبيق مذهبهم الاجتماعى رغم ما واجههم من صعوبات وعقبات ؛ فإنه لا تهمنا النتائج السياسية المترتبة على هذه المحاولات فإذا كانت محاولاتهم لشق قناة السويس قد انتهت باستيلاء فرديناند دليسبس على كافة المعلومات والمستندات المتعلقة بالمشروع من أرليه Arlès

(١) Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin, T. 1 p. 40.

وأنفانتان فى صيف عام ١٨٤٥ ، ثم تنكره للمدرسة السان سيمونية ، واتخاذ المشروع صورة سياسية استعمارية ، فإن هذا لا يحرم أتباع سان سيمون تفكيرهم الإنسانى الذى يبدو واضحاً من تصرف أنفانتان بعد أن تحقق مشروع قناة السويس فأعلن على الملأ قائلا : « لقد كنت عجوزاً مخرفاً عند ما انتابنى الحزن أنه دى ليسبس الذى زوج البحر الأحمر بالبحر الأبيض ومن غير المهم أن يصادف العجوز بروسبر أنفانتان خيبة أمل ، وليس من المهم كذلك أن يصدم أبناءه فى آمالهم ، ولكن المهم هو أن تشق القناة وسوف تشق ، ولهذا السبب فإننى أقدم الشكر إلى دى ليسبس وأباركه[١] » .

وعلى هذا فإن محاولة تطبيق مذهب سان سيمون الاجتماعى فى مصر يعد على جانب كبير من الأهمية فى تاريخ التفكير الإنسانى وفى تهيئة الطريق أمام فلسفة كونت الوضعية وفلسفة ماركس المادية لتجدا طريقهما إلى التنفيذ والتطبيق . ومن المهم أن ندرك أنه إذا كان تطبيق المذهب الاجتماعى للمدرسة السان سيمونية قد تعثر لظروف سياسية واجتماعية خارجية فإن هذا لا يقلل من أهمية هذه المحاولة التى تعتبر الأولى من نوعها فى تاريخ الفلسفة الحديثة .

---

(١) Maxime du Camp Souvenirs littéraires, T. II, p. 103, 104.

obeikandl.com

خاتمة

من دراستنا لفلسفة سان سيمون من جانب ولأتباعه من جانب آخر يمكننا أن نتبين الدعائم الأساسية للفلسفة السان سيمونية وهى :

الدعامة الأولى هى فكرة الإنسانية العالمية ، تلك العالمية التى لا تحدها بحار أو محيطات أو قارات ؛ عالمية تقضى على النزعات القومية وتنظر إلى المجتمع الإنسانى كوحدة متكاملة لا بد من تعاون أطرافها لصالح الإنسانية جمعاء .

وقد وقع فى اعتقاد أتباع سان سيمون أن وصل القارات بعضها ببعض عن طريق الممرات المائية سيترتب عليه تحقيق هذه الدعوة إلى الإنسانية العالمية . فإذا ما اتصلت الشعوب وتبودلت الثقافات وتوحدت الأهداف والغايات أمكن الوصول إلى إنسانية عالمية متكاملة .

أما الدعامة الثانية للفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية فتقوم على فكرة التصنيع . والتصنيع فى نظرهم يعنى العمل المنتج من كافة صوره ، والتصنيع بالنسبة لهم ليس غاية فى ذاته ولكنه وسيلة إلى غاية أسمى ألا وهو الوصول بالمجتمع إلى حالة من الاستقرار السياسى والاجتماعى . فإذا ما تحقق هذا الاستقرار تلاشت مظاهر السلطة واستحالت شيئاً فشيئاً إلى مجرد أعمال الصيانة وحفظ النظام . بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فرأوا أن مجتمعاً صناعياً متكاملا لن تكون به حاجة حتى إلى تنظيم قضائى .

ويعتقد سان سيمون وأتباعه أن العمل هو المصدر الأصيل لجميع القيم الأخلاقية . والمقصود بالعمل عندهم هو العمل الاجتماعى التعاونى من أجل المجموع ، إذ أن العمل الفردى فى نظرهم لا قيمة له لأنه لا يعدو أن يكون إنتاجاً مفككاً لا يؤدى إلى سعادة الإنسانية وتقدمها ، والعمل الفردى ينزع نزعة أنانية فى حين أن العمل الجمعى يتجه نحو تحقيق التقدم المضطرد للجنس البشرى .

ويذهب سان سيمون وأتباعه مذهباً طريفاً فى هذا المجال ، فهم يرون أن للموسيقى أثراً بعيد المدى فى تنمية الإنتاج فى العمل ، فضلا عما تثيره فى النفس الإنسانية من نزعات فاضلة تجعلها بمنأى عما قد يصيبها من توتر عنيف لو استغرقت فى العمل الآلى الذى تميز به عصر التصنيع .

وتعتبر الموسيقى والأناشيد دعامة أساسية فى المذهب الاجتماعى للمدرسة السان سيمونية حتى أن تقارير البوليس تؤكد أن الموسيقى والأناشيد السان سيمونية طالما أثارت الجماهير إثارة بعيدة المدى عميقة الأثر .

ويطيب لنا أن نتبين أهمية استخدام الموسيقى والأناشيد كدعامة لدعوة اجتماعية . فالحقيقة أن النفس الإنسانية يستميلها كل ما يؤثر فى المشاعر أو يخاطبها بطريق غير مباشر .

وقد كانت المدرسة السان سيمونية من رواد تنمية الوعى الفنى والموسيقى فى المواطنين ، باعتبار أن الموسيقى أداة تعبيرية أقدر على الاستمالة من الخطب والمواعظ الأخلاقية ، فضلا عن أن الأناشيد وخاصة تلك التى تحتاج إلى ترديد جمعى أداة فعالة فى ربط الجماعات بعضها ببعض وتوحيد الأهداف والغايات .

أما الدعامة الثالثة للفلسفة السان سيمونية فهى التربية الاجتماعية . وهدفهم من هذا تدعيم فكرة الإنسانية العالمية عن طريق هذه التربية الاجتماعية . فسان سيمون وأتباعه يعتقدون أنه لا استقرار ولا دوام لهيئة من الهيئات الاجتماعية ما لم يكن هناك قانون عام يحدد لأفرادها موضوع نشاط مشترك . فالحياة الفردية ليست إلا جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية ، ولهذا فهم يرون أن التربية لا بد أن تكون تربية اجتماعية لا ترى فى الفرد ما يفصله عن المجتمع ، بل على العكس تعمل على انضوائه تحت لواء هذا المجتمع .

يرى سان سيمون وأتباعه أن الحب هو العروة الوثقى التى ينهض عليها صرح المجتمع . فالحب هو الذى يبث الحياة فى جوانب المجتمع ، والفرد لا يعيش إلا من أجل هذا الحب الذى إذا تمكن من تحقيقه أدرك السعادة التصوى ، أما

كيف يتحقق اكتشاف هذه الغاية المثلى وتوفيرها للمجتمع الإنسانى وتمكينه من الوصول إليها ؛ هذا هو محور تفكير المدرسة السان سيمونية فى التربية الأخلاقية الاجتماعية . فسان سيمون وأتباعه يرون أن الرابطة العالمية التى تربط الإنسانية المنشقة على نفسها والتى احتدم الصراع بين أبنائها ، هذه الرابطة سوف تتحقق على أكمل وجه إذا توافر للإنسانية عنصر الحب والتفاهم. هذا الحب هو ما أسماه سان سيمون « بالديانة الجديدة » .

فالدين فى نظر سان سيمون وأتباعه ليس مجرد تفكير أو تجريد فكرى بمعنى الكلمة أو أحاسيس داخلية منفصلة عن مجموع الأحاسيس والقواعد الخاصة بأفكار الفرد التى تتأثر بالأعمال الاجتماعية وبالحياة السياسية . وإنما الدين هو ثمرة طيبة لما يقوم بين أفراد المجتمع من تعاون وتضافر ومحبة وإخاء .

ويرى سان سيمون وأتباعه أن التعليم كالدين يؤدى مثل ما يؤديه الدين من آثار إذا أحسن استخدامه واستقام توجيهه ، وقد ينحدر إلى عمل رتيب فيفقد بذلك معناه وتضيع الفوائد التى ترجى منه .

وتهدف التربية الاجتماعية عندهم إلى تكوين وحدة متكاملة من التفكير والثقافة . لأنه لا يمكن أن يوجد مجتمع لا يقوم على أفكار مشتركة ، فكل فرد يود أن يحس بالرباط الذى يربطه بالآخرين ، ذلك الرباط الذى يعد الضمان الأكيد للوحدة المتبادلة .

ويلاحظ أن للفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية جانباً سياسياً. فهى تهدف إلى قيام الجمهورية كأساس للحكم فى مجتمع صناعى. والنظام الجمهورى فى نظرهم أداة من أدوات التربية الاجتماعية للحاكم ، ووسيلة للوصول إلى قيام حكومة تلقى على عاتق المواطنين أخف الأعباء . هذه الحكومة التى توفر الحياة الحرة الكريمة لكل مواطن دون أن تعمل على استغلاله ، ودون أن تتيح من النظم الاجتماعية ما يدفع الإنسان إلى استغلال أخيه الإنسان ، لا تتسق طبيعتها مع النظم الملكية الوراثية . ولهذا فإن قيام جمهورية استبدادية ركن هام من أركان فلسفتهم الاجتماعية.

ويلاحظ أن للمرأة فى المذهب السان سيمونى مكانة مرموقة وأهمية بارزة . وسان سيمون وأتباعه يعتقدون أن المرأة يجب أن ينظر إليها كنظير متكافئ مع الرجل فى تكوينه العقلى والخلقى . بل إن سان سيمون نفسه يرى أن يسند إليها الوظائف العامة فى الدولة وأن لا يقتصر نشاطها على نطاق الأسرة . ويذهب سان سيمون إلى إمكان اختيار المرأة فى مجلس نيوتن وهو مجلس العلماء الذى يدير شئون الإنسانية ويعمل على إخضاع السياسة والأخلاق للملاحظة وإدخالهما ضمن العلوم المجردة .

* * *

ومن المهم أن نقف على النتائج التى أمكن لنا عن طريق هذا البحث أن نقدمها للتفكير الاجتماعى المعاصر :

أولا : أن شق قناة السويس قام فى أساسه على مبادئ فلسفية واجتماعية تهدف إلى قيام العالمية عن طريق وصل القارات بعضها ببعض . وأن تحول المشروع إلى عمل سياسى استعمارى لم يكن الغاية التى كان يهدف إليها أتباع سان سيمون .

ثانياً : إن الحركات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المعاصرة ترتكز على الفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية . وبهذا يمكننا أن نعد بحق أتباع سان سيمون من آباء الاشتراكية الحديثة .

والماركسية فى ذاتها ما هى إلا تطبيق للفلسفة السان سيمونية مع الالتجاء إلى القوة والعنف فى تحقيق أهدافها ، بعكس ما كانت ترمى إليه الفلسفة السان سيمونية. كما أن حركة التسلح الخلقى التى سادت أوربا فى أوائل هذا القرن ما هى إلا محاولة لتقليد الفلسفة السان سيمونية فى قيام حياة أخلاقية فاضلة تقوم على العمل والإنتاج المثمر .

وفى هذه الأيام نجد أن حركة التعايش السلمى التى تنادى بها كتلة الدول الإفريقية الآسيوية ترتكز فى جوانب كثيرة منها على الفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية .

ثالثاً : إن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل قد بدأت تتأكد مع ظهور الحركة السان سيمونية بل إنه يمكن أن نقر رحقيقة هامة وهى أن اهتمام سان سيمون وأتباعه من بعده بمنح المرأة حقوقاً مساوية للرجل كانت الخطوة الأولى بل الدعامة الأساسية للنهضة الحالية للمرأة وإلى ما وصلت إليه من حقوق وامتيازات سياسية واجتماعية .

رابعاً : تعد الحركة السان سيمونية أولى الحركات الاجتماعية التى حاولت النهوض بالمجتمع من جميع جوانبه فاستخدمت أساليب خاصة فى الفن والموسيقى والطب غايتها العناية بالنوع الإنسانى بأكمله لا بالمواطنين كأفراد فحسب .

* * *

وإذا كان قد واجه تطبيق الفلسفة السان سيمونية فى مصر الكثير من العقبات أو أصابه الفشل ، فإن كل منصف لا يسعه إلا أن يقر بنجاح هذه الدعوة وخاصة إذا أدخلنا فى الاعتبار أن أتباع سان سيمون يستهجنون أساليب العنف والقوة وتغيير النظم القائمة فى مجتمع من المجتمعات قسراً كما اتجهت فلسفة كارل ماركس فيما بعد .

ويمكننى القول — فى ختام هذا العرض — أن الحكم الصادق على حركة فكرية اجتماعية لا يمكن أن يكون مقياسه النجاح أو الفشل فى التطبيق وإنما يكون مقياسه الإيمان والإخلاص والجرأة فى محاولة هذا التنفيذ ، وهذا ما توفر بصورة كاملة لدى أتباع سان سيمون .